مايكل أنجلو عاشق فى الستين

(١٤٧٥ م - ١٥٦٤ م)

اكتشف موهبتــه منذ نعومة أظفــاره، فلم يترك للزمــن صقلها، بل راح يصقلها بنفســه، يتعلم من كل فنان عرفه أو قابله، اهتم بالأدب والشعر بجانب الفن التشكيلى، نسى كل شىء فى حياته ماعدا الفن، انطوى على نفســه، لم يهتم بــأن يكون له أصدقاء، أو يقبل على ملــذات الحياة، بل كان الفن هو لذتــه الحقيقية وصديقه المخلص، آمن بعبقريته وزادت ثقته فى نفســه، فشــعر بالعظمة واحتقر الآخرين، وكلمــا انتهى من إبداع عمل فنى زاد إعجابه بنفســه، واندمج فى عمل جديد، وظل هكذا حتى وصل إلى سن الستين، ووسط انهماكه فى أعماله الفنية الخالدة، والتى مازالت تبهر كل من يشــاهدها، دق الحب قلبه فتعجب، وأخذ يحارب هذا الشــعور الغريب عليــه، ولكن الحب هو الــذى انتصر فــى النهاية، فأحب مايــكل أنجلو فنان عصــر النهضة الكبير، وغير الحــب من طباعه فلم يعد الفنــان المغرور المصاب بعقدة العظمة، بل أصبح فنانًا هادئًا يشعر بلوعة البعاد ولهفة اللقاء، وجمال الوصال، وجنون الانتظار.

ولد المثّال والمصور والمعمارى والشــاعر الإيطــالى الكبير مايكل أنجلو بوناروتى Michelangelo Bounarroti فى السادس من شهر مارس سنة

١٤٧٥ م بمدينة كابريزا، ونشأ فى أسرة من الرجال فلم تكن له أخت واحدة، بينما كان له أربعة أشقاء، ماتت أمه وتركته طفلا صغيرًا، فأرضعته سيدة يعمل زوجها فى نحت الرخام، وأظهر الطفل مايكل ميولا فنية منذ صغره، لكن والده كان يعارض أن يعمل ابنه فى الفن، لأن الأب كان قاسيًا عابدًا للمال، والفن لن يجلب عليه المال الذى ينتظره من ابنه، ومع ذلك اضطر إلى أن يخضع للواقع، وأرسل طفله إلى مثال مشهور يدعى «غرلانديو» ليتدرب على يديه على فن النحت، ويبدو أن هذا الفنان ابتلى بشخصية ضعيفة وعدم الثقة فى النفس، ومن هنا بدأ يحقد على الطفل الصغير الموهوب، وانتهز فرصة طلب الأمير لورنزو دى مديتشى إرسال اثنين من تلاميذه للتدريب، فأرسل مايكل أنجلو ليتخلص منه، ولم يكن يدرى أنه يرسله للشهرة والمجد والتفوق.

فى هذا القصر وجد فناننا الصغير المناخ الصالح والصحى لنشأته، فأخذ يستفيد من الأمير ولمحاته النقدية، كما أخذ يستمع إلى دروس الأدب والشعر من فحول الأدباء والشعراء، واهتم بتأمل كل أعمال وحركات أستاذه «لورنزو» حتى يستفيد بخبرته، وفى حديقة قصر مديتشى كان الطفل مايكل يعكف على نحت تمثال لرجل طاعن فى السن، بينما كان الأمير يمر بالمصادفة فاستوقفته براعة الطفل، وتحدث إليه قائلا:

«.. ألا توافقنى أن كبار السن غالبا ما يفقدون بعض أسنانهم..»

واقتنع التلميذ بسرعة برأيه الموضوعى فأمسك بأزميله، وبحركة بارعة

كسر أحد أسنان التمثال مما زاد من إعجاب لورنزو به فدعاه إلى مائدته، وسمح له بأن يشارك أولاده اللعب، وجعل له مرتبًا شهريًا، وقد أدى وضعه الجديد إلى حقد زملائه عليه، فغافله أحدهم يوما ولكمه لكمة قوية فى أنفه ظل أثرها واضحًا طوال حياته. هكذا كانت طفولة مايكل أنجلو سعيدة بالفن على الرغم من قسوة والده وموت أمه وحقد زملائه، وكان انطوائيًا بطبعه يميل إلى الهدوء والابتعاد عن الناس، يقول فى اعترافاته إلى أحد أصدقائه:

«.. شعرت منذ حداثتى أن المجتمع عدوى وأن فى العزلة خلاصى، وفى التأمل الطويل غذاء لعقلى، وصفاء لروحى، وحفزٌ لقواى الفكرية الخلاقة، ولم أكن قد أولعت بالنحت والتصوير فحسب، بل بالشعر والأدب أيضًا، وشتى ألوان الجمال التى افتن الخيال البشرى فى إبداعها. وهكذا حرمت نفسى من ملذات الصبا، وعكفت على الدرس والتحصيل، والعمل والإنتاج، واهبًا حياتى من أجل فنى، منقطعًا فى سبيله عن العالم..».

لم يهنأ مايكل أنجلو طويلا فى قصر الأمير «لورنزو» إذ مات الأمير سنة ١٤٩٢، وتولى الحكم أخوه بيير الذى كان يعانى من اختلال العقل وسوء التصرف، واضطر مايكل إلى الرحيل عن فلورنسا بعد أن كان سعيدًا منعما فى القصر، وعن هذه الفترة فى حياته يقول: «.. أعجب بى الأمير لورنزو دى ميدتشى واستشعر عبقريتى، وأبى إلا أن تكتمل هذه العبقرية وتنضج على يده، وكان الأمير شاعرًا وعالما ومن هواة

ثقافة الإغريق. فرحب بى وفتح لى أبواب قصره، وقدمنى إلى أفراد أسرته وإلى الصفوة المختارة من مريديه، فاتصلت هناك بأعظم رجال فلورنسا أمثال المتصوف فينشيانو، والفيلسوف ميراندولا، والشاعر ليزيانو وغيرهم، استمعت لأحاديثهم، وتشربت روحهم الوثنية الإغريقية التى كانت لا تؤمن إلا بالعقل البشرى، والتى كنت أعتقد إذ ذاك أنها المثل الأعلى..».

رحل مايكل أنجلو عن فلورنسا إبان ثورتها على الحاكم المجنون، وعاد بعد انتصار الشعب، ومن هناك نزح إلى روما وعمره واحد وعشرون عاما، كانت روما حينذاك مدينة الفن والأدب والموسيقى، تحفل بالقصور والآثار القديمة والليالى الشاعرية والفنية، وعلى الرغم من كل هذا لم يكن فناننا سعيدًا بل كان يشعر بالغربة ويشك فى الناس، قابله الفنان التشكيلى المعروف «رافاييل Raffael» الذى مات فى عيد ميلاده السابع والثلاثين - ولد فى ٦ إبريل سنة ١٤٨٣، وتوفى فى ٦ إبريل سنة ١٥٢٠ - وكان رافاييل لا يمشى إلا وسط حاشيته والمعجبين به، والذين يبلغ عددهم حوالى خمسين شخصًا، وعندما رآه مايكل أنجلو فى هذا الموكب قال له يمازحه: (مالك تسير هكذا كأنك جنرال).. فرد عليه رافاييل: «ومالك تسير هكذا وحيدًا كأنك جلاد» فى روما كلف مايكل انجلو بعمل تمثال الرحمة Pieta واستغرق فى إبداعه ثلاث سنوات من سنة ١٤٩٨ إلى سنة ١٥٠١، وهذا التمثال يقع فى كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان الآن، وكان قد تعرض للكسر وتحطيم

أجزاء منه سنة ١٩٧٢ على يد مجنون يدعى «لازلو توت» لكن الأوساط الفنية العالمية اهتمت به ورممته فعاد إلى جماله وروعته، وقد صنعه أنجلو من قطعة رخام واحدة يمثل السيدة العذراء تحنى رأسها الجميل على جسد ابنها يسوع المسيح بعد إنزاله من على الصليب ميتا، وقد أبدع الفنان فى تصميمه لوجه العذراء فجعله معبرًا عن الحزن والدهشة والطهر فى وقت واحد، كما عالج طرحتها ببراعة جعلها وكأنها تتحرك فعلا أمام من يشاهدها، وتمثال الرحمة يرتفع ١٩٥ سنتميترا كما يزن ٣٠٥٠ كيلوجراما، ويعتبر من المقدسات لأتباع المذهب الكاثوليكى، لأنه أيقونة دينية تضاء لها الشموع، بالإضافة إلى كونه أحد الروائع الفنية العالمية الذى يزوره الناس - على اختلاف أديانهم ومذاهبهم - الفاتيكان لمشاهدته وكان سببا فى شهرة الفنان الشاب مايكل أنجلو. بعد ذلك عاد فناننا إلى فلورنسا، وهناك طلب منه صناعة تمثال داود من قطعة رخام كانت مهملة فى ساحة الكاتدرائية، وقد عكف أنجلو ثلاث سنوات فى عمل التمثال (١٥٠١ - ١٥٠٤) وأخرجه بنفس روعة تمثال الرحمة، وذاع صيت فناننا الشاب الذى لم يكمل الحلقة الثالثة من عمره، وأصبح اسمه يتردد مع كبار فنانى عصره فى إيطاليا، واستدعاه البابا يوليوس الثانى إلى روما ليشيد له ضريحا يخلد اسمه مع الأيام، ووافق أنجلو، وبدأ يضع التصميمات ويستجلب الرخام والأحجار والمواد الأخرى اللازمة للبناء، ولكنه فوجئ بالبابا يطلب منه التوقف عن البناء، فقد أقنعه أصدقاؤه والمقربون إليه بأن إقامة الضريح أمر يتعارض مع

الدين، والأولى أن ينفق هذه الأموال فى ترميم وزخرفة كنيسة القديس بطرس، غضب مايكل أنجلو من قرار البابا، وبخاصة أنه كان قد بدأ فعلا العمل والتشييد، وعاد مرة أخرى إلى فلورنسا ملجئه الدائم، وطلب منه البابا العودة إلى روما والعمل فى كنيسة القديس بطرس، لكنه لم يستجب لنداء البابا عدة مرات، وأخيرًا عاد إلى روما فرحب به البابا ترحيبًا كبيرًا، وعامله معاملة ممتازة دفعته إلى مزيد من الإبداع، وكان البابا يوليوس الثانى محبًا للفنون وراعيًا لها، وتعال صديقى القارئ نسمع اعترافات أنجلو عن هذه المرحلة كما رواها لأحد أصدقائه، وكما كتبها الأديب الكبير إبراهيم المصرى فى كتابه «فى موكب العظماء».

يقول مايكل أنجلو فى اعترافاته:

«.. أخذت أطالع «الكوميديا الإلهية» للشاعر دانتى، وأقضى الليل ساهرًا أقرأ فى الكتب المقدسة. وصرخات الأنبياء والمرسلين تدوى فى أذنى، وتحثنى على تحرير روحى من ربقة جسدى.. ولكنى برغم تفتح عقلى على الشعور الدينى، لم ينفذ الإيمان الخالص إلى أعماق قلبى، فلا الرحمة ولا المحبة ولا الصفح ولا الرقة ولا الحنان، استطاعت أن تتمكن منى وتكبح جماح عناصر القوة المضطرمة فى كيانى.. كنت أؤمن بالطبيعة الجبارة فقط. بالطبيعة التى تطلب من الإنسان أن يكون قويا. وتأبى أن تشفق عليه إذا لم يكن قويا بل وتحثه على القوة حتى ولو كان ظالما. هذا الإيمان الغاشم الأعمى الذى أسرفت فيه إسرافًا تفجر من فرط

إحساسى بقيمة فكرى وعظمة الأعمال الفنية التى ابتدعها خيالى وَلَّدَ فىَّ على مرّ الزمن ضربا من الكبرياء الجامدة الباردة المترفعة، ألقت فى روعى أنى أعظم من الناس طرا، بل أعظم من جميع عباقرة عصرى. فاحتقرت الناس. واحتقرت العصر كله. وارتددت إلى غياهب وحدتى، وفى نفسى عزة شامخة قاسية لم أقوَ أبدًا على قهرها أو تلطيفها، وزاد فى عزلتى وتكبرى إمعانى فى الخلق والإبداع. وانصرافى إلى تجميل ذلك المصلى الذى شيده فى الفاتيكان البابا سيكستون الرابع، مصلى «سيكستين» حيث تجلت عبقريتى. وحيث أمضيت خمس سنوات أرسم وأنقش على قبة الهيكل نشأة العالم كما جاء فى سفر التكوين، وأمثل فوضى الطبيعة وهى خارجة من صلب الظلام إلى نور الحياة الساطع.. ولقد عشت معظم هذه السنوات مشدودًا إلى حبل، ومتطلعا إلى قبة الهيكل، غائبًا عن وعيى، وتائها فى فنى، أحاول أن أخالس روح الله، وأندمج فى الملأ الأعلى.. ولكنى ما إن هبطت على الأرض حتى افتقدت نفسى فلم أجدها. كأن الحياة قد انفلتت منى. وكأن شبابى قد ضاع فى غمرة عملى، وكأنَّ أيسر متعة فى هذه الدنيا لم تصبح من نصيبى ولا من حقى. فغشيتنى كآبة ساهمة آسفة مستعصية. فارتميت مرة أخرى فى عزلتى، ورحت أكتب فى مذكراتى: «ليس لى صديق ولا حبيب، أنا وحيد على الدوام، ولن أجد أبدًا من أخاطبه..».

استطاع مايكل أنجلو أن يثبت أنه فنان تشكيلى متكامل شامل، ليس مَثَالاً فحسب، فبجانب التماثيل الرائعة التى أبدعها قبل ذلك، مثل

تمثال الرحمة وتمثال داود، قام برسم قصة الخلق فى سقف كنيسة سيكستين، كيف خلق الله آدم ثم حواء؟ وقصة غواية الشيطان لهما وهكذا، يقول محمد شحاته فى كتابه «علماء وفدائيون».

.. من أخلد أعمال أنجلو زخرفة كنيسة سيكستين بالفاتيكان حيث استغرق إنجازه لهذا العمل أربع سنوات متوالية - يذكر أنجلو فى مذكراته أنه قضى خمس سنوات وهو الأصح بالطبع - ظل طوالها مستلقيًا على ظهره فوق العوارض الخشبية وهو يرسم ويزخرف، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول عليه غير عامل سحق الألوان، حتى البابا نفسه منعه بحيلة من دخول المكان الذى يعمل به. وبعد أن انتهى عمله الضخم لم يكن يستطيع القراءة إلا إذا كان مستلقيًا على ظهره، وإذا رأيته ماشيا رأيت رأسه منحدرة إلى الوراء.. لقد تعودت عضلات عينية على ذلك من طول المدة التى ظل بصره فيها شاخصًا إلى سقف كنيسة سيكستين..

تبلغ مساحة السقف ٥٢٠ مترًا مربعًا والارتفاع ١٨ مترًا. ولم يمضِ هذا العمل المبدع فى كنيسة سيكستين والذى نال من صحة وحياة أنجلو دون محاولة من زملائه وحساده بالتهوين والتحقير، وفى كتاب «مذكرات مسافر».

يقول المؤلف: «بعد أن انتهى أنجلو من رسم قصة بداية خلق الإنسان وصور الأنبياء على سقف كنيسة سيكستين ظهر بعض المعارضين

والحاسدين كالعادة، وفى هذه المرة اعترضوا على رسم آدم وحواء عرايا تمامـا دون ملابس أو حتى سـترة. وأجاب أنجلو بأن الإنسـان هو من إبداعـات الله عز وجل، وأنه خلق هكذا عريان دون ملابس، وأنه يريد أن يكون صادقا مع فنه، ومن هنا رسمه كما خلق، ووقف البابا بجانب رأى الفنـان ضد اعتراض الكرادلـة، لأنه كان يحب الفنان، ويقدر فنه الرائع، ويتذوق الفنون بعامة..».

مات البابا يوليوس الثانى، وطلب الكرادلة من أنجلو تحقيق رغبته القديمة فى إنشاء الضريح الخاص به، ووافق الفنان احترامًا للبابا الذى اهتم به، ووفاء لمواقفه الجادة والمشـجعة له، وشيد الضريح. ظل فناننا يعمل ويبدع طوال حياته، فقد عاش للفن ونسى كل شىء، وتذكر فهيمة أمين سلامة فى كتابها: «قاموس مشاهير الفنانين التشكيليين الأجانب والمصريـين» أهم أعمال أنجلو فتقول: «.. أهـم أعماله فى صغره تمثال الرحمة، وتمثال دواد، تمثال موسـى جالسًا [١٥١٥: ١٥١٦]، تمثال عبد مقيـد يحتضر موجود بمتحف اللوفر بباريـس، وله تمثالان هما الليل على قبر لورنـزو الثانى، والآخر هو الفجر على قبر جيليانودى ميديتشـى، وهما موجودان بسـان لورنسو بفلورنسـا. ولم يكن يعنى بالتنسيق قدر عنايته بالمظاهر القوية، واستطاع أن يتخطى أسلوب عصر النهضة، وأصبح الأب الحقيقى لعصر الباروك» لنا أن نسأل مايكل أنجلو الفنان المبدع عن رحلة حياته وإبداعاته، وهل هو راض عن نفسه؟

يجيب الفنان الكبير، أهم معالم عصر النهضة فى اعترافاته:

«..أحسست بما يحس به كل بطل بعد المعركة، أحسست تلك الرغبة الملحة فى أن أريح رأسى على صدر محب ومحبوب، كنت وحيدًا إلا من أحلامى خاوى القلب إلا من لهفتى على امرأة تحبنى وتستطيع أن تملأ فراغ وجدانى. على أنى كنت من جراء استغراقى فى عملى وتغلبى على صعوبات فنى وإخضاع تلك الصعوبات المتعاقبة لمشيئتى وسلطانى، لا أتصور أنه فى مقدورى أن أقنع بحب امرأة أقل منى عظمة، امرأة أراها تتقلب وتتلون وتعبث وتمكر كمعظم النساء.. لهذا أثرت أن أكبح جماح عواطفى وأخنق نداء الجنس فى بدنى، وأهذب ما استطعت من ميولى وأهوائى، وأتجه بها نحو خدمة الفن وحده..».

ثم يحدثنا أنجلو عن قصة حبه وعشقه وهو فوق الستين من عمره، وعن حبيبته التى غيرت رأيه فى المرأة:

«.. هكذا عشت أكثر من ثلاثين سنة لم أقرب فيها امرأة حتى عرفت «فيتوريا كولونا» فصحوت فجأة ورأيت فى عينيها وجه الدنيا!.. لم تكن امرأة بل كانت نصف إله.. كانت أديبه وشاعرة، رائعة الحسن، نبيلة النفس، موفورة الثقافة، لا حدة فى غرائزها، لا عنف فى طبعها، ولا جموح فى تفكيرها، بل رصانة هادئة واثقة مطمئنة تنبع من أعصاب سليمة وعقل راجح، وضمير حى نقى..».

كانت السيدة فيتوريا كولونا قد تزوجت وهى فى التاسعة عشرة من عمرها المركيز «بسكارا» وأحبته حبا عميقا، ولكنه تنكر لها بعد

بضعة أعوام من زواجهما، وابتعد عنها، وبقدر حبها العميق له، بقدر استهتاره بها وانغماسه فى الفسق والفجور، متخذًا من الخمر والميسر والنساء والقتال غاية لحياته الضائعة.. ومع ذلك فقد ظلت فيتوريا كولونا وفية له، تحبه ولا تفكر لحظة واحدة فى احتمال التطلع إلى رجل غيره.. لم تستمر حياة هذا الزوج المستهتر بل لقى مصرعه فى ساحة الحرب.. ووصل لها خبر مصرعه فاستقبلته بشجاعة وصبر.. ولم يتغير أو يفتر حبها لرجلها على الرغم من استهتاره بها فى حياته، وعلى الرغم أيضا من وفاته.. بل ظلت وفيَّة لذكراه، عاهدت نفسها بألا تكون إلا له، وتعيش على الذكرى على رغم ما فيها من ألم، والعجيب أنها أحبته وهو ميت أكثر مما كانت تحبه وهو حى، وألهبت اللوعة عواطفها، فاستغلت موهبتها الشعرية فى كتابة قصائد عن زوجها تعبر فيها عن حبها له ووفائها لذكراه، وارتباطها به حتى يأتيها الموت، كما ظلت عاصبة جبينها بمنديل حريرى أسود ينم عن حدادها الأبدى.

هذه السيدة النبيلة الوقورة «فيتوريا كولونا» هى التى أحبها مايكل أنجلو بعد وفاة زوجها، وتعال عزيزى القارئ نعرف من اعترافات فناننا الكبير كيف عرفها:

«.. التقيت بها فى روما ذات صباح وكنت فى الحادية والستين من عمرى، وكانت هى قد بلغت السادسة والأربعين.. وراعنى منها ذلك الجمال الساحر المقترن بصفاء العقل ونبل الثقافة واتقاد الخيال.

فأحسست فجأة أن ما حلمت به من كمال الجسد وكمال الروح هو الآن حى يترقرق من هاتين العينين الوسنانتين التائهتين، ومن هذا الجسد الأهيف المجنح المتسق البديع.. وفى مثل وقع الصاعقة تحلل كِبرى، وذابت قسوتى، وانخلع قلبى، ثم تفتحت ينابيعٍ روحى، وزايلتنى كآبتى المستعصية واذعنت وأحببت.. وكنت شيخًا كلّل الشيب هامتى.. فاستشعرت الخجل العميق من نفسى.. الخجل العميق من هوى طائش مشبوب يرجع بى إلى طور حداثتى وجنونى. فهممت بطرد هذا الحب عنى. وخنقه فى صدرى. وقتله فى غياهب عزلتى، ولكن مرأى فيتوريا كان يهيج أعصابى، ويجلد دمى، ويبعث فىَّ أوهام المراهقة وأحلام الشباب.. أجل.. كانت الطبيعة تنكل بى فى كل ساعة أخلو فيها بنفسى.. كانت قواى لا تلبث أن تنشط وتتحفز وتغرينى، حتى تصرعها الشيخوخة الغادرة التى تسرى فى عروقى ودمى، وكنت قد أرهقت بدنى عملا متواصلا، فلم يعد فى مقدوره أن يستجيب لندائى، ولم يكن لى بد مع ذلك من أن أحب، وأن أحتمل هذا الحب، وأن أعيش من أجله، وأن أمنحه كل خفقة من قلبى، وكل شعاع من نور يمكن أن يجود به القدر علىَّ فى مغرب حياتى، فامتثلت لحظى، وأخذت أشرب هذا الحب كيانى، وأبدعه فكرى وأجسمه بتصورى، وأحاول وأنا أضرم بشعلته فى صدرى أن ألهب ناره أيضًا فى قلب فيتوريا كولونا.. ولكن المرأة الشامخة، المرأة العاتية، المرأة التى تعيش فى جوف الذكرى. أشفقت علىّ فقط.. فازداد كمدى. وازداد يآسى، وتمنيت من الله لو أن

موتا طارئًا يعجل بى وينقذنى..

وأحسست غيرة مروعة من الميت من الشبح، من الطيف القوى المرهوب الذى كان ما يفتأ يحوم حول حبيبتى ويسلبها منى فكرهتها. ثم عدت فعشقتها، أقرض مثلها الشعر أحاول أن أفرج به عن نفسى، وأن أحب فيه فيتوريا كمخلوق عزيز المنال، علوى سماوى أثيرى تعالى عن كل دنس. وبرح بى هذا الحب وأذلنى فى رجولتى.. ولكنى صارعت البقية الباقية من هذه الرجولة الحيوانية وصرعتها، ومازلت بعقلى أروضه على العشق الوجدانى المجرد، وبجسدى أسومه شتى ضروب الحرمان، حتى أشرق ذهنى، وصفت روحى، وتفوقت شيئًا فشيئًا على ذاتى الأرضية الفانية، وأصبحت خليقًا لا بالتطلع إلى الله الذى كان لم يزل بعيدًا عنى، بل بالتطلع إلى ذلك الجو السماوى الرائع الذى كانت تسبح فيه فيتوريا كولونا.. وأحبتنى المرأة عندئذ وعطفت على. ولكنها أحبتنى كوالد وشقيق وصديق. فرضيت بهذا الحب مختارًا، ولم أعد أشعر بوجود جسدى. سموت وارتقيت وحلقت واندمجت فى حبيبتى اندماجًا روحيا عميقًا.. أحسست فيه لأول مرة نعيما لم أشعر بمثله عمرى أجل كنت أشبه بملاك هام حبًا بملاك. فأردت تحت تأثير فيتوريا أن أضاعف أيضًا قوتى وسعادتى، وأن أستكمل جوانب نبوغى وعبقريتى، وأن أتفوق فى الأدب كما تفوقت فى الرسم والنحت، فانطلقت أنافس حبيبتى فى قرض الشعر وأبعث إليها بقصائد أصب فيها عصارة مستقطرة من خالص قلبى ودمى.. وكانت الأيام تجرى..

كأنه لا وقت ولا زمن، ولا ليل ولا نهار.. وفجأة تكاثفت سمائى، وتبدد حلمـى، وغمر الكون كله ليل لم يعقبـه نهار. أصيبت فيتوريا الإلهية بمرض عضال وماتـت.. ماتت فى أقل من ثلاثة أيام. ماتت هى وبقيت أنا.. أنا الشـيخ المحطم المشـرد الوحيد، فتاه عقلى، وطافت بى فكرة الانتحار ثم ملكتنى واستغرقتنى..

نعـم أردت أن أموت.. بل أردت أن تعذبنى قوة فاتكة هائلة قبل أن أمـوت، وأن تقطعنى هذه القوة إربًا إربًا وأن أرى نفسـى أموت.. ولكن كل هذه الرغبات كانت، ويا للحسرة! مجرد أحلام.. لم أستطع أن أقتل نفسى، لم أستطع أن أتصور أنى قد انسلخت عن عقلى الذى أمثل به فى فسحة خيالى صورة فيتوريا.. فأردت أن أعيش لأرى هذه الصورة. لأنعم أيضًا بها.. لأخدع الواقع المشـئوم وأتخيل أنهـا ماتزال هنا.. أمامى.. على ملقى اللهفة منى. تنبض وتختلج قوة وحرارة وحياة..

يبـدو أن الصـورة الوهمية لم تقنع غلتى.. فـأردت أن أرسمها.. أن أخلدها، فحاولت جاهدًا مسـتميتا، ورسمت من وحى خيالى عدة صور لفيتوريـا، ثم صغت لها أربعة تماثيل، ولكـن الفن الذى كان بالأمس عبدى وكنت قد أخضعته لمشيئتى خاننى لأول مرة واستعصى على وهزأ منى.. لم أسـتطع أن أبدع من هيكل فيتوريا عملا فنيا كاملا يرضينى.. كنـت كلما رسمت لها صورة أوصغت تمثالا.. أرى فى الصورة والتمثال جسـدها فقط وجمالها الإنسانى فقط.. أما تلك اللمحة الأثيرية الإلهية التى كانت تشـع من عينيها. فقد كنت عاجزًا كل العجز عن تأديتها..

كنت مشـلولا أمامها.. كنت كإنسـان ملوث بطين الأرض، يحاول عبثًا أن يشق حجب ظلامه وأن ينفذ إلى جوهر السماء..» عجيب حب مايكل أنجلو هذا، فهو عاشق عجوز، ولكنه يشعر بكل مشاعر الحب الجميل العميـق، لهفة اللقاء، ولوعة البعـاد، وحزن الموت والفراق، وبدلا من أن تتحـول هذه الطاقة الروحية إلى فـن وإبداع وتصميم لصورة حبيبته فيتوريا على شـكل صـور وتماثيل.. تتوقف العبقرية وتهتز الفرشـاة لأول مرة، ثم يمزق فناننا رسـوماته ويحطم تماثيله.. ماذا حدث؟ أين مايكل أنجلو الذى أبـدع تمثال الرحمة الضخم، وتمثال داود، وتمثال موسى الذى زاد ثقته بنفسه فربط عليه وهو يردد «انطق بقه»..؟

وأين مايكل أنجلو الذى أبدع قصة الخلق منذ بداية آدم وحواء، وظل خمس سنوات ناظرًا إلى أعلى يرسم ويبدع؟ إن الحب يمنح صاحبه دائمًا طاقـة للعمل والإبداع فماذا حدث مع صاحبنا؟ هل السـبب فى ذلك أنه أحب فى سـن متأخرة؟ أو لأن حبيبته التى لم ير مثلها قبل ذلك ماتت وتركت له اللوعة والحزن واليأس والضيق والضجر؟. أخذ أنجلو يبحث عن العزاء والسـلوى، بعـد أن كاد يفقد عقله وحياتـه لموت حبيبته.. أراد أن يفـرج عن نفسـه ذات مسـاء فدخـل حانة من حانـات اللهو والمرح، وجاءته الغوانى الراقصات يطلبن وُدَّه، ويحاولن إرضاءه بشتى الطرق، وشرب الخمر، وقضى وقتا فى اللهو والمرح بين الخمر والنساء والشـيطان.. وفجأة شـعر بتفاهة ما يفعل، وانتابته حالة من الذهول والوجـوم، ونفحة نورانية روحيـة جعلته يترك الحانة، ويهرول إلى بيته بسـرعة، إنها لحظة فاصلة فى حياته بين الشـك والإيمان، بين

الرذيلة والفضيلة، وبين الماضى والحاضر، وفى بيته أمسك بالقلم ونظم هذه القصيدة:

«.. أيــن أنا؟.. أنــا فى بيــت الخطيئة. وهذه هــى الخمر، الخمر المبدعــة، تبرق أمامى كالأمل وتســطع كالعزاء. وهذا هو رهط الغانيات الفاجرات.. يقهقهن فى فرح. ويشــربن فى جشع. ويرقصن فى جنون. كإنمــا احتواهن من فرط الهوس والطرب شــبه إعصار.. وأنا أبحث عن عقلى فيفــر منى. وأصرخ مناديــا إرادتى فلا يجيبنى ســوى الزئير.. زئير دعوة الحيــوان للحيوان مقرونًا بجلجلة البغايا ورنين الكئوس.. ما حوجنى إلى نسمة ربيعية ترف على وتحملنى كالجناح، ما أحوجنى إلى مياه مطهرة وزنابق بيضاء كأطياف ملائكة أبرار!.. الغوانى يتقدمن صوبى. ويرقصن حولى، ويقدمن لى الكئوس مترعة، ومشعشــعة بسنى الشعاع المتطاير من ضحكاتهن القاصفة، ومن عيونهن الداعية السكرى.. يا لأجسادهن المتثنية كالأغصان، المتموجة كالألحان، الملتوية كالأرقام.. إنى لأوشــك أن أمد فى نشــوة عنقى، وأمد فى توســل بصرى، وأمد فى جــرأة فمى وشــفتى.. ما أحوجنى إلى طوق يغل عنقى، وغشــاوة تعمى بصرى، وموت بارد جارف يختم على فمى وشفتى.. واأسفاه.. الضعف يأخذنى. والشهوة تســحقنى، والخمر يغمرنى، والغوانى الفاجرات، كأزهار من نار، يتهاوين مشتعلات بين ذراعى!..

أواه.. لقــد خنــت فيتوريــا وتدهــورت وســقطت، فأيــن المفر أين

الخلاص؟..

إن صوت الفن يقول لى: لا مفر إلا فى الخلق والإبداع.. وحب فيتوريا يقول لى: لا خلاص إلا فى التسليم والانتحار.. وروح الله تهتف فى أذنى: لا نجاة إلا فى كمالى الخالد السرمدى. وها أنا ذا ولأول مرة فى حياتى، أفتح بالرغم منى جميع خلايا ذهنى وجسدى وأنصت إلى روح الله الذى كنت قد شُغلت عنه بأنانيتى وكبرى.. إنه لينساب فى عروقى كالماء القراح، ويدوى فى سمعى كلحن النقاهة وفرح الشفاء.. فأقبل علىَّ يا الله ولا تتركنى.. كنت قد نسيتك يا الله، فى حين إنك كنت منذ الأبد بجوارى. فأشرق علىَّ من ضباب روحى وأنرنى. انبثق من ظلمات طفولتى وخلصنى، فأنت وحدك الذى يمكن أن تجمعنى بحبيبتى فى رحاب جنتك الطاهرة وتنقذنى..

وهأنذا أنسل من ماخور جسدى وأتبعك.. لقد لمحتك.. لقد عرفتك.. لقد لمست بيدى الآثمة طرف ثوبك يا الله فخذنى..».

بدأ مايكل أنجلو بعد ذلك حياة جديدة مع الله بكل قلبه وإيمانه، وتخلص من الشك، والإيمان بالقوة الجسدية، وتأكد أن هناك حياة أخرى بعد الموت، وأن الإنسان خالد مهما انتهت حياته على الأرض.. وعرف طريقه إلى الصلاة وإلى الكنيسة ليعبد الله.. وعاد إلى عمله يبدع ويرسم، ولم يترك فرشاته وقلمه وأزميله حتى الشهر الأخير فى حياته.. ومات فى ١٢ فبراير سنة ١٥٦٤ عن تسع وثمانين سنة.. مات

أنجلو فنان عصر النهضة وهو يؤمن بأنه سيرى حبيبته فيتوريا ويعيش معها بعد الموت متعانقين عناق الزنابق تحت أقدام عرش الله.

obeikandl.com